مناقشة مداخلة شعيب حليفي

أبدأ قبل كل شيء بإبداء ارتباكي بلسان الشاعر القائل:

تكاثرت الظباءُ على خراش فما يدري خراش ما يصيد!

وأتساءل ـ **والمدارج** ذاتها تعدي بالسؤال ـ كيف يمكن لهذه الدقائق الهيتشكوكية أن تفي بكشف القناع عن محل النّزاع حول الرواية المغربية والسرّ في مقاربة الناقد شعيب حليفي لِـ **مدارج** الكاتب موليم العروسي بجزئيها ولياليها الموعودة و «البيضاء»؟

ولكن مداخلة الأخ شعيب تُضاعف من ارتباكي، إذ تُدرج **المدارج** في المتن الروائي المغربي دون أن تسمّيها روايةً بصريح العبارة! ففي مواضع يقول شعيب «نص» **المدارج** وفي مواقع أخرى يشير إلى علاقته بالسيرة الذاتية. وهذا إشكال أوّل: مسألة التجنيس. والمؤلف نفسه لم يجنّس عمله، بل تركه مفتوحاً على القراءة والتأويل والسؤال والاحتمال، مكتفياً ـ وربّما عن قصد وسابق إصرار وترصد ـ بكلمة «كتاب» الشاردة على هامشه كما في عتبة التصدير التي جاءت عبارتُها مبهمةً وموحيةً بالإهداء والتقيّة وبصيغة هذا السؤال: «هل كان بإمكان هذا الكتاب أن يوجد ولو لم تكن لطيفة فيه»؟. وعلى كثرة ما قرأتُ من روايات لم تربكني روايةٌ مغربية على الأقل مثلما أربكتني هذه الليالي «العروسية» الجميلة. فهي إذن رواية مُرْبكة بامتياز وفي ارباكها بالذات تكمن جدّتُها؛ والجمال ـ والجديد ـ كذلك مربك بطبيعته البنائية الاستفزازية الصامدة والمخلخلة والهادمة لكل ما هو مألوف وعادي. لذلك لا أدري: أهي رواية بالمعنى المتعارف عليه عربياً وغربياً، أم سيرة ذاتية، أم كتابة جديدة تجريبية وتجريدية تبحث في الفكر والفن والطبيعة والمجتمع والأشياء والذات واللغة والعصر والتراث عن واحة الجمال والملتمعة والهاربة باستمرار كالضوء والسراب؟ إنها باعتقادي روايةٌ وسيرةٌ ذاتيةٌ معاً أو روايةٌ سيرةٍ ذاتية. وليس صعباً على القارئ الاهتداءُ إلى هوية الكاتب وصورة الفنان في شبابه ورؤاه، والأخ حليفي نفسه رأى المؤلّف خلفَ الراوي.

هل تغيّب **المدارج** حقاً التاريخيّ والايديولوجيّ كما قال حليفي؟ لا أعتقد أنها تغيبهما بل تذيبهما في مخاطباتها ورؤاها ومواقفها وقضاياها، وهما لحمتها وسداها من خلال السؤال عن المطلق والطبيعي والانساني والحيواني والواقعي والحلمي والفلسفي والعلمي والصوفي والخرافي وعلاقة الحب بالسلطة والتقاليد والأخلاق والمؤسسة الخ... إلى درجة السؤال: هل هي تجربة إنسانٍ عاشق ولهان، أم رحلةُ بحثٍ في الزمن النفسي والاجتماعي والإبداعي والجمالي والتاريخي والتراثي والحداثي، بدءاً من تكوين الخليقة على عهد آدم إلى الشيخ النفزاوي، ومن سدوم والطوفان إلى الهنا والآن؟ وفي **المدارج** علاقات كثيرة دالّة على ذلك. وبالتالي فإنّها روايةٌ ذات رؤية لاأدرية، لأنّ بطلها أو راويها لا يستقر على حال ولا يركن إلى قرار واختيار... عدا السؤال بالجواب عن كل شيء، والجواب بالسؤال عن كل شيء. وهي أيضاً وأيضاً أسئلة لاأدرية وأجوبة متشائلة. وهذه اللاأدرية حاضرة وبقوة في جميع الصفحات من الغلاف إلى الغلاف.

فـ **المدارج** بجزئيها كتابٌ واحد ذو إيقاع هارموني واحد متعدّد اللقطات والأناشيد واللّوحات. وما عليٌّ ومريم إلاّ وجه واحد وإن لم يبدُ من صورتهما على الغلاف إلاّ القفا، أو هما على عكس ما يقول ابنُ عربي بدنان تحل فيهما روح واحدة. وبالتالي فالروايّ/الكاتب هو البطل المحوري و«الناطق الرسمي» باسم جميع الشخصيات التي هي كلّها ظلال له أو أقنعةٌ يتحدث بها وإليها.

ويشمل التداخلُ كلّ العناصر الأخرى المكوّنة للمدارج والليالي كالفضاءات والأزمنة. وحتى الحكاية التي أشار اليها الأخ حليفي لا يبدو أن هناك حكاية أو حدثاً بالمعنى المتعارف عليه. فالمدارج كلّها كتابةٌ بالذاكرة. والذاكرة هي المختبر السّردي أو الشاشة الكبرى التي يحدث فيها كلّ شيء، أو يحدث على شاشات أخرى مجاورة كالذات والنفس والدواخل والأعماق الخ... وهي إلى ذلك كله روايةُ استبطانٍ ذاتي تتخذ النفسَ مرجعاً ومنهجاً ومحطَّ سؤال بالجواب وجواب بالسؤال عن مُطْلقات ومنطلقات كثيرة: الدين والجنس والعلم والخرافة والحب والجسد والفلسفة والتصوف والحضارة والبداوة والصحراء والمدينة والموت والحياة والوجود والعدم والطبيعة البشرية والحيوانية والعقل والجنون والمجاز والحقيقة والمسجد والكنيسة والشرق والغرب، وما إلى ذلك من الثنائيات الضدية المجتمعة في عقدٍ واحدٍ متلاحم ومتناغم أو بعبارة واحدة، هي وحدة وصراع للمتناقضات والمفارقات الغرائبية والعجائبية. وهي في ظاهرها قصّة حبّ من الفاتحة إلى الخاتمة. بيد أنّها في جوهرها تتعدّى الحب أو تتوسّل به إلى مآرب أخرى أبعد من الحب البشري وأعمق من العشق الإلهي.

واللّغة في **المدارج** أيضاً مربكةٌ، ومتداخلةُ اللّغات المختلفة والمؤتلفة، ومتعددةُ الضمائر (فلا تكتفي بضمير المتكلم وحده كما قال الأخ حليفي، بل إنها كثيرة «الالتفات» البلاغي: من المتكلم مفرداً وجمعاً وتثنية إلى الغائب مفرداً وجمعاً وتثنية والمخاطب كذلك). ومهما تعددت الضمائرُ فالمتكلم واحد. وهي متعددة الأساليب البلاغية أيضاً: من استفهام وتعجّب ونداء وأمر وقسم ودعاء وتمنٍّ ورجاء وتحذير وإغراء وغير ذلك من الظواهر الأسلوبية الجديرة بالبحث اللساني.

ويبقى أن كل شيء في **المدارج** يتأسّس على الحبّ في الحياة كما في الكتابة. وإذا كان بطرس الحلاّق يرى في إحدى مقالاته أنّ الرواية العربية الحديثة ينبغي أن يبدأ تأسيسُها من مكوّن أو تيمةِ الحبّ، فإنّ كاتبنا موليم العروسي قد أضاف بـ **مدارج** لياليه «البيضاء» لَبِنَةً أساسية على طريق بناء الرواية المغربية «الموعودة».

ادريس الملياني